القصص

صور من هوميروس

١٤ - حروب طروادة

أخيل يبكي بتروكلوس

للأستاذ دريني خشبة

قتل بتروكلوس !

وانقلب هذا النصر المؤزر إلى ذهول استولى على أفئدة الميرميدون ، صيرته الصدمة الهائلة أشبه شيء بالهزيمة المؤكدة !

وبينما كانت أبصارهم زائغة تنظر إلى ماحل بمولاهم ، وبينما كانوا ينظرون إلى أشباح المنايا ترف فوق الساحة ، وتدوّم على رؤوسهم ، تكاد تخطفهم ، كان هكتور وملؤه ينزعون عدة أخيل ، دون أن يلقوا أقل معارضة ! .. ..

ثم أفاق الميرميدون بصيحة من منالايوس العظيم ، اقتحم الحلبة نحو زعيمهم قدماً ، وناضل وحده عن الجثمان العزيز ، الذي كان هكتور عني نفسه بحمله إلى طروادة ليجعله ممرضاً هنالك ، يشهد له بالشجاعة المغتصبة ، والجراءة المزورة ، والبطولة التي لم يكن لها بأهل ؛ ثم ينبذه بعدها بالعراء فتنوشه الطير ، وتتغذى بلحمه المر سباع طروادة وكلابها ! .. .. ..

وانقض الميرميدون يذودون عن الجثة مع منالايوس ، ولكنه انقضاض المهموم المحزون ، وهجمة المرزّأ المكدود ؛ فلم تكن ضرباتهم الواهية تخيف الطرواديين بعد إذ أنقذوا من بتروكلوس الداهية ، ولم تكن صيحاتهم الوانية تهز بضعة من قلوب أعدائهم الذين أصبحت لهم الكرة عليهم .. ..

واستطاع منالايوس ، بعد لأي شديد وجهد أن يحمل الجثة ، يساعده مريونيس الكبير ، وأن يقتحما بها المترك المصطخب إلى الصفوف الخلفية ، يحمي ظهورهما أجاكس وجنوده

وذعر قادة الميلانيين حين رأوا شدة هجمات الطرواديين بعد مقتل بتروكلوس ، وحين نظروا فوجدوا الميرميدون يشتغلون عن المعركة بالبكاء على مولاهم ، والرثاء لما حل بهم من بعده ، والفزع الأكبر للقاء أخيل .. .. لا يتقدمهم اليه قائدهم .. ..

ولجأ منالايوس إلى الحيلة ، وفكر من فوره في إثارة النخوة في قلب أخيل ، عسى أن يقدم فيقود أجناده ، ويتم النصر للميلانيين ، فأرسل اليه أنتيلوخوس يحمل النبأ العظيم ، ويزلزل من تحته الأرض حين يقص عليه ما لفظ به هكتور

ولو قد علم أنتيلوخوس ما يثيره هذا النعي في قلب أخيل ، ما آثر أن ينفذ اليه به ! فلقد صرخ ابن ذيتيس صرخة اضطرب لها البحر ، وماد الشاطئ ، وتجاوبت لها جنبات الجبال ، ثم بكى ؛ فاربد أديم السماء واعتكر ، واحتلك الضحى وبسر ، وشاعت في العالم ظلمة أهول من ظلمة القبور !

« بتروكلوس ! .. .. »

أفي الحق يا أعز الأصدقاء أنك أوديت ! وا حرباً ! أإذا لقيتك الآن فأنت ما تحرك شفتيك لتكلمني ، وما تفتح عينيك لترى إلى أخيل ؟ ! ألا ينبض قلبك بعد اليوم يا بتروكلوس ، حتى ولا بحبي ؟ ! .. .. ..

أإلى حتفك كنت تستأذنني إذن ؟ .. ..

ويلي عليك يا بتروكلوس ! ويلي عليك يا أعز الأحباب ...

ولم يطق ، فطفق يحثو التراب على رأسه ، ويشد شعره ، فيكاد ينزعه ، ويرسل في السماء وفي الأرض والبحر صرخاته الداويات

وانتفض الموج ، وفار الماء ؛ وكأنما اتصل قلب أخيل باليم فاضطرب عما فيه من وجد ، واصطخب عما يؤوده من كمد ، وشاعت فيه أشجانه وأحزانه ، حتى وصلت إلى الأعماق .. ..

حيث تأوي ذيتيس إلى زوجها ، رب البحار السفلية ، فشعرت الأم المحزونة بما ينتاب ولدها في أسطوله الراسي على هامش طروادة ، وأحست بما يأخذه من ألم ، ويمزق حشاه من عناء ؛ فصرخت ثمة صرخة اجتمع لها كل عرائس البحر ، وعذارى

الماء ، من حوريات نريوس [1] ، وأخذن يلطمن خدودهن الوردية تحت النشيج ، ويذرين من نرجس عيونهن فيضاً من الدمع الذرى ، ثم انتظمن صفوفاً صفوفاً ، ورحن يتهادين وراء ذيتيس ، مرسلات فى الأعماق أنشيد الحزن ، طاويات ذلك الرحب الذى يفصل بين مملكة مولاهن ، وبين شطئان إليوم ! حتى إذا كُنَّ عند الأسطول الميلانى طفون فوق الماء ، فانقلبت اللجة بجممهن جنة ، وارتد البحر بربهن فردوس نتيم ! !

وبرزت ذيتيس فرقت سفينة ابنها أخيل الباكى الآن الحزين ؛ وتقدمت فضمته إلى صدرها الحنون ، وجعلت تهون عليه أمر صاحبه ، وتصرفه عن هذه الحرب التى يفرق من هولها قلبها الخفاق أشد الفرق ، لما تعلمه منذ قديم من القتلة التى تخترم ولدها تحت أسوار طروادة ، كما أنبأتها بها ساحرات الماء ..

وأن أخيل أنة شديدة ، وقال لأمه : « أماه ! هكذا قدر لنا أن نلقى ما حتمه القضاء علينا ، وهكذا شاء سيد الأولمب الكبير المتعال ، ولكن خبريني بربك ما قيمة هذه الحياة ما لم يعد بتروكلوس ينضرها ويزين حواشيها ، وما دام أعز أحبابى وأودائى ملقى فوق هذه الساحة النكراء ، ذبيحاً بين أشق الخصوم الألداء ! !

آه يا بتروكلوس ! لقد شفى هكتور غلة قلبه حين سفك دمك غادراً ، وحين انتزع عدتك غادراً ، وحين يفاخر بكل أولئك غادراً !

وهذه العدة يا أماه ! أيلبسها هذا الشقى وهى هدية الآلهة الى بليوس ، أبى ، رب الاعماق ، وهدية من أبى الى ؟ !

أبداً لن أعود معك الى حيث الصار الأبدى ينتظرنى ، مالم أثأر لأوفى أحبائى بتروكلوس ، من هذا النذل ، هكتور ، ومالم أرو هذه الصمدة الظامئة من دمه النجس ، وأتفل فى وجهه بمفاخراته الكاذبة وإهاناته للقتيل الكريم . . .

لا . لا ، لا تحدثى الى عن أوبة تصمنا بالذل الى الأبد يا أماه ، وإنى لأقسم بالسماء ومن فوقها ، لن أبرح الأرض حتى ينفذ هذا السنان فى صدر هكتور ! »

وصمتت ذيتيس قليلا ، ثم لم تطق أن تخفى ما تخشاه على ولدها من ذلك القضاء المحتوم . فأخبرته بما تحدثت به العراقات عام وُلد ؛ وما تخافه من أمر هذه النهاية الحزنة ، والفجيعة التى لا تكون مثلها فجيعة

ولكن أخيل تبسم ابتسامة محزونة ، وتحدث الى أمه عن المجد الخالد الذى سيحمله اسمه آخر الدهر : « واستبشار الميلانيين بعودتى لناصرتهم ووضوح الحق وجلائه لأنا ممنون إننى روح الجيش وحماسة الجند ، والقوة المذخورة لدحر الطرواديين ! صه يا أماه ! فلن تزعجنى مخاوفك ، ولن تلق فى روعى أقل الجزع . . . لأنه إن كان حقا ما تحدثين اليك به ، فأين يهرب أحدنا من القضاء ! ؟ ! »

وبهتت الأم مما صمم عليه ولدها ؛ ولما أيقنت أن لاسبيل لها إلى قلبه الجرئ ، بدا لها أن تعاهده على ألا يخوض الكريهة حتى تعود اليه من عند ڤلكان ، الألَه الحداد ؛ التى ستذهب هى اليه تكلفه بعمل درع وخوذة تحملهما اليه ، ليحمياه فى كل يوم روع ! ! وعاهدها أخيل

وأمرت ذيتيس عذارى الماء فانثنين الى مملكة بليوس ، يحملن اليه أنباء ولده . أما هى ، فانطلقت الى ڤلكان . . . هناك . . . هناك فوق ذروة جبل إطنة ، حيث وجدته ينفخ فى لظى كيره الضخم ... يصنع الدروع والبُدد . . .

ولقيها الألَه الحداد بالترحاب ، وشرع من فوره يصنع عدة لم تر العين مثلها ، ولم يأبه أن يصنع مثلها حتى للآلهة ! ! . . .

« وكيف لا ، وأخيل الحبيب سيدرع بها وتحميه من أوشاب الطرواديين ، وأوغاد هذا الأخ اللئيم مارس ، الذى تعلمين مما كان من أمره مع ڤينوس ما تعلمين . . لقد فضحني السافل فضحته القاذر . . . . . . [1] »

ولكن الساحة كانت تضطرب ، وجموع الطرواديين تأخذ الميلانيين من كل فج ؛ وكانت حيرا ، مليكة الأولمب ، تطلع من عليائها فتأخذها الرهبة لما يحيق بعبادها من تصريع وتقتيل ؛ وكانت مينرفا كذلك تهلع عليهم هلعا شديدا . . .

وتشاور الربتان ، واتفقتا على أن تُنفذا إبرليس الى أخيل ، تأمرانه أن يخوض الكريهة فى جانب الميلانيين . ولكنه قص على الرسول ما عاهد أمه عليه فعاد الرسول الى الأولمب يحمل نبأ هذه المعاهدة . . .

بيد أن حيرا أشارت على مينرفا أن تنفذ الرسول الى أخيل يحمل اليه درعها ، وكان لمينرفا درع اسمه ايجيس لم يصنع مثله لأحد من قبلُ ڤلكان ؛ وأن ينتهى اليه أنهما تأمرانه بالتوجه

(١) النريد م بنات نريوس أحد أرباب الماء ومنهم طائفة كبيرة تخدم ذيتيس ، أم أخيل

(١) نشرنا هذه الأسطورة التى يقصدها هوميروس فى (الرسالة) من قبل فحسبنا اليوم الاشارة اليها هنا

الى الساحة فيطلع عليها ليراه الطروادون ، فانه بحسبهم أن يروه فيولوا الأدبار ! !

وانطلق إيريس برسالته الى أخيل ؛ فاهتز البطل من نشوة الطرب ، وشاعت الكبرياء فى أعطافه لأنه سينال شرفاً لم ينله أحد من قبل ، وذلك بأنه سيدّرع بقميص مينرفا ، المسرودة من حديد ! !

وعند ما نهض ليلبس الدرع رأى مينرفا نفسها تساعده بيديها الطاهرتين النقيتين كالبلور وتضع فوق جبينه إكليلا وضاءً من الذهب ، ثم تقوده الى الساحة ! !

وهناك ، وقف أخيل المظيم فوق ربوة عالية تشرف على الساحة كلها ، ثم أرسل فى الآفاق صيحةً داوية ، كانت تنفخ فيها مينرفا فتزيدها قوة وعنفوانا ، فزلزل قلوب الطروادين وجعلها تدق فى صدور ذويها كالنواقيس ! !

وما كاد الأعداء يستيقنون أن الصيحة صيحة أخيل ، وما كادوا ينظرون الى هذه الآراد المُنشَّرة فوق رأسه ، والاضواء المتلألئة من إكليله ، حتى سُقط فى أيديهم وارتعدت فرائصهم وولوا على أعقابهم مدبرين ! وكانت خيولهم المذعورة تولى هى الأخرى فتطأ الفرسان هنا وهناك ، وتسقط فى الخنادق المحيطة بطروادة ، فتلاق فيها حتفها عن عليها ! !

وتوارت الشمس بالحجاب

فتحاجز الجمان وذهب كل ليستريح من هذا اليوم العصيب

وكانت صيحة أخيل أكبر عون لمنالايوس وزميله فى الاسراع بجثة بتروكلوس الى مؤخرة الجيش ، حيث الأمان والاطمئنان ؛ فلما عاد أخيل كانت جثة صديقه أول ما وقع بصره عليه ... فبكى ... وبكى ... واجتمع حوله الميرميدون يبكون

ثم رثاه بكلمة دامعة ، ترجمت عن نفس مكلومة ؛ وأمر فأوقدت نار كبيرة وضع عليها دست ماء كبير ؛ وأخذوا جميعا فى غسل الجثة المعفرة بالتراب ، ودهنها بالطيوب ثم تحنيطها بالأفاويه والبهار والقرنفل ، ولفوها فى مدارج طويلة من الحبر الغاليات البيض .

* * *

واجتمع قادة الطروادين يتشاورون فى هدأة الليل ، فخطب بعضهم [1] ناصحا بوجوب التحرز داخل الأسوار فى غد ، مخافة أن يبطش بهم أخيل وشياطينه ، لاسيا وهم سيخوضون الوغى بقلوب جرحها مصرع بتروكلوس ، وهم لا بد مثئرون له ، مهما كلفهم الأثئار من أرواح ودماء !

ولكن هكتور أبى إلا أن يخرج للقوم ، وكأن قتله بتروكلوس غيلة قد خدعه عن شجاعة أخيل ، وما قدر له مما سيلقاه من بطشة أخيل ... وهل غد ببعيد ! ! ؟ ؟

* * *

وفى هذه اللحظة أيضاً ، كان زوس يتحدث إلى حيرا حديث الذى أظفر بأعدائه وكأنما أطرب الآلهة الأكبر أن أخيل يعود إلى المعركة بعد أن أديل له من الهيلانيين ومن الطروادين على السواء

وكانت حيرا تسمع إليه وهى تطفر فرحاً ! كيف لا ؟ وهذا أخيل يعود إلى أعدائها فى الغد ، فيصليهم عذابا ، ويجرعهم غصصاً ما ذاقوا مذ ترك الحلبة أمثالها ! ؟ ولتحزن ڤينوس ! وليحل غضب السماء على باريس ، ولتذهب التفاحة المشئومة إلى الجحيم . . .

* * *

وأشرقت شمس الغد

ولاحت ذيتيس تتهادى فوق الزبد فى الأفق الغربى ، تحمل الدرع التى لم يصنع مثلها فلكان

حتى ولا للآلهة أنفسهم !

والويل لك ياهكتور ! !

(لها بقية) دريني خشبة

(١) پوليداماس

أبحاث طبية

مطلوب موظف مصرى الجنس يكون حاصلا على شهادة الدراسة الثانوية (القسم الثانى) على الأقل له دراية بالاصطلاحات الطبية ليعمل فى قسم مباحث طبية بالقاهرة على أن يعين بالدرجة الثامنة مع العلم أن هذا التعيين لايشمل الأطباء

وتقدم الطلبات (باللغة الانجليزية) مع التفاصيل الشخصية الخاصة بالخبرة الطبية إلى حضرة صاحب السعادة عميد كلية الطب بمستشفى قصر العينى فى ميعاد غايته آخر نوفمبر سنة ١٩٣٥

غريب

بقلم حبيب الزحلاوي

لم يكن باقياً من سنة ١٩١٣ سوى شهر واحد وبضعة أيام وقتما وصلت مصر قادماً من دمشق هرباً من مطاردة الحكومة إياى

* * *

الليلة عيد، وأجراس الكنائس تدق، والناس بين داخل البيَع بوجوه تعلوها سيماء الرضى والإيمان، وبين خارج منها مسرع الخطى إلى الفنادق الكبرى والمنتديات الخاصة تطلعا إلى الاشتراك فى حفلات العيد

كنت مع الماشين إلى النادى الشرقى وكأنى منساق معهم إليه؛ ولما دخلته حسبت الناس ينظرون إلى نظرات الاستيحاش والاستغراب

أهاجت فرحة الناس نفسى فتذكرت والدى وأهلى وإخوانى وقد خلفتهم فى غير هذا البلد الذى كل ما فيه ينادينى: « غريب »

تركت صحبى ومواطنى هناك؛ تركت قلباً وذكريات تتأجج نارها كلما طال البعاد، وما أحراها بالاضطرام ليلة العيد إذ ذهبت وحدى إلى ذلك النادى أقضى ساعات مع أناس يعرفوننى ولا أعرفهم من أبناء الجالية السورية

كان كل ما فى النادى فى تلك الليلة ينم عن المرح والحبور، وكنت الصامت المستوحش السائم وحدى بين الجمع، لأنى « غريب »

* * *

انقضت سنوات عدة كنت خلالها لا أنقطع عن زيارة النادى، إذ أصبح لى فيه إخوان وأصدقاء لا يقلون حبا لى ولا يقل تعلقى بهم وإخلاصى لهم عن أولئك الأصدقاء والاخوان الذين خلفتهم فى دمشق

زرت النادى فى ليلة الأحد وأنا متأبط ذراع فتاة عرفتها فيه، وقد صارت لى زوجة، وصرت لها بكليتى، وعقدت حفلها بحياتى، ووقفت على إسعادها وجودى، وأحسب أنى كنت فى تلك الليلة من أسعد الناس، وأوفرهم غبطة، وأحرصهم على تكييف كل شىء بالهناء المرفرف على نفسى؛ وحينما كان يطوف بذهنى خيال والدتى وأنا وحيدها، وصورة شقيقتى المحبوبة كنت أحاول استهواء ذاتى وإقناعها بأن قد صار لى فى امرأتى حنان كحنان الأم، وألفة كألفة الأخت، فوق حب الزوج لزوجه، بحيث أضحى محالا أن يطوف بخاطرى طيف « الغريب » أو وحشة البعيد عن أهله ووطنه

* * *

طوتنى مصر كما طوت الآلاف من الناس الذين وفدوا مثلى عليها، فأقلتنى بأقليمها، ونفخت فىّ روحها، وألهمتنى وحى بيئتها، فصيرتنى كأحد أبنائها أقوم بالواجب المفروض بمثل ما يقوم به كل مصرى مخلص حر؛ ولما كنت أعود بذاكرتى صوب الشام، مسقط رأسى ومهد حداثتى، كنت أحس بالحرمان يعزقنى ويكبت روحى، وأشعر بالواقع يسترضينى ويتودد إلىّ . .

حقاً لقد علمتنى مصر أن أرى فيها وطنى وأهلى، ولقد تعلمت منها كيف أبادلها الجميل بجميل والوفا بوفاء؛ لقد علمتنى كيف أحبها وكيف أحافظ على حبى مسقط رأسى ومهد ذكرياتى، وكنت أصيخ بسمعى دائماً إلى أنات قومى وأوجاعهم، وأسعى جهدى إلى مزجها بأنات إخوانى المصريين الموجعين؛ وكنت أعمل، وسأعمل على أن أجعل من تفاعلات تمازج الأنات المؤلمة ما يزيل العلة الموجعة

* * *

انقضت سنوات أخرى كنت لا أنفك خلالها عن المجئ إلى النادى الشرقى؛ وحدث فى عصر يوم من أيام الشتاء أن ذهبت إليه، وكنت متعب الجسم، مكدود القوى، موزع الخاطر، مشرد الفكر، فرحت تواً إلى صالة الرقص وانتحيت ناحية فيها أرفه عن خاطرى بقدح من الشراب

ما كنت لأعبأ بالراقصات والراقصين رغم ما فيهم من رشاقة ودلال جذابين؛ وما كنت لأحس ضربات « الجازبند » المنيئة المؤذية للنفس لأنى كنت فى شاغل عن كل ذلك

طال بى الجلوس؛ هممت بالنهوض؛ رفعت رأسى عفواً وإذا بى ألمح سيدة جالسة قبالتى على قيد أمتار منى، ما كدت أتبينها حتى نهضت مسرعاً لتحيتها

عرفتنى السيدة إلى زوجها، واكتفت بقولها عنى: « صديقنا » وذكرت اسمى، فكان هذا التعارف على ما فيه من

بساطة واقتضاب كافياً لاستذكار الزوج ، فنهض مسلماً سلام مودة وصداقة ، داعياً إياى إلى مجالستهما .. .. انطلقت ألسنتنا بالحديث ، تارة عن الحياة الزوجية وسعادتها القائمة على التضحية ، والتفاهم ، والطمأنينة ؛ وطوراً على الأبناء وعناء تربيتهم ، وعما يضحى الآباء فى سبيلهم من عواطف زوجية يستغرقها الحنان الوالدى . كنا نتكلم عن كل شيء ، وعن كل إنسان نمرنه فى لبنان بسرور ، ولم ننس الغدير وأحراج الصنوبر ، ودير « القرقفة » فى قرية كفر شيما مسقط رأس السيدة حيث عرفتها هناك ، وكنت ألمح من طرف خفى إلى حوادث الشباب ، ولم يصدنا عن الاسترسال فى التنقل بالكلام كالأطفال من موضوع إلى آخر إلا دعوة الزوج زوجه إلى الرقص معه ، واعتذارها بلطف اليه بحجة الرغبة فى الرقص معى رقصة « التانجو »

ورقصنا . . . . . . وكنت إبان الرقص كالسادر الغارق فى حلم لذيذ ؛ كنت أنعم بالراحة كلها فى مخاصرة هذه السيدة التى تنبعث منها الطمأنينة إلى أعماق نفسى ؛ لم أ كلها ؛ لم أجتل محياها ؛ كنت نشوان بها ؛ لم أسمع كلمة منها ، بل شعرت بجسمها اللين البض يسترخى شيئاً فشيئاً بين ذراعى . كنا سوية كنبرة وتر مزدوجة عزفها موسيقى ماهر ، فصدرت كأنها من وتر واحد ، يدفع خطانا وينقلها نقلا ايقاعياً متناسقاً .. .. وقبل الانصراف تواعدنا على اللقاء فى النادى فى الليلة القادمة

***

طافت بى الخواطر ، ثم ألحت علىّ ، فآثرت العودة إلى البيت ماشياً لأطلقها فى أوسع مجالات الفكر

رجعت بى الذكريات إلى دمشق يوم بارحتها ويوم لذت بلبنان بقرية صغيرة رابضة فوق ربوة تطل على سهول « الشويفات » ثم البحر ، تكتنفها أحراج الصنوبر وقد انتشر منها أريج الأصماغ ؛ ذكرت ذلك الدير المهيب الشاهق الرابض فوق الربوة أشبه بقلعة شيدت لحماية الخيالات والأحلام !! وتراءت لى أطياف سكان القرية وهى تحج اليه متسلقة الربوة بهمة ونشاط ، يتهادون فى ابتسام الفجر الساحر المغنى تحية الصباح

ذكرت إقبال رجال القرية للسلام علىّ ودعواتهم إياى إلى زيارتهم . ذكرت الساعات الطوال التى كنت أقضيها بين الأحراج أفترش الأرض ، وأناجى الشجر ، وأملأ من جمال الطبيعة قلبى وروحى ؛ تراءت أمام عينىّ صور شيوخ القرية جالسين فى القهوة يدخنون النارجيلة ويحلمون ، والشباب يلعبون الورق أو يشربون ويغنون ؛ كنت أطرب لسماع أغنياتهم المستمدة من وحى روح الطبيعة الساذجة الهادئة ، والمعبرة عن دوافع الغريزة بأبسط الكلمات والاشارات

ذكرت تلك الفتاة القروية عائدة من الكنيسة بثيابها الفضفاضة ، وضفائرها المتدلية على كتفيها ، ووجهها الخمرى الزاهر بنفحات الربيع ، وصدرها الناهد ، وقدها المشوق ، وخطواتها المتزنة الحازمة

كم كانت رائعة صبغة الخجل الوردية التى اصطبغت بها أذناها لما سألتها عن اسمها ، وهل فكرت فى صلاتها فى غير أهلها ممن تعرف من الناس ! ؟ لقد حيرها سؤالى فارتبكت وسكتت عن الجواب ؛ وذكرت أيضاً زيارتى لها فى بيت أهلها وكيف اعترفت لها بحبى وعاهدتها على الزواج ، وتلك الأوقات الحلوة التى كنا نقضيها تارة فى النقاش وقراءة الكتب ، وطوراً فى التطلع إلى المستقبل والتمهيد لبناء عش سعادتنا

تمثلت يوم عودتى إلى دمشق ، والاضطهاد الذى أصابنى من حكومتها ، وفرارى من السجن والتجائى إلى مصر بعد الحكم علىّ وعلى زملائى بالنفى المؤبد ، لا لشيء إلا لأننا من دعاة الاستقلال الظامئين إلى الحرية

ذكرت كل هذا والطريق ممتد أمامى ؛ كانت ظلمته تبعث فى نفسى رؤيا تلك الأيام التى ودعتها منذ سنين فى أرض الوطن وطويتها بين ضلوعى ، وبدالى كأن ماضى يبعث من جديد وينشر فجأة ؛ تجسمت أمامى الحوادث كأنما لم يمر عليها ساعات ، ذلك العهد الباسم الذى أمضيته وإياها ، خيل إلى أن هذا الماضى الماثل القريب قد ضاع منى كله ، كأن بينى وبينه برزخاً ... فجوة الزمن ، والحنث بالعهد ، تفصل بيننا !!!

ارتدت بى الذكرى فجأة إلى النادى الشرقى ، فاستشعرت تلك الذراع الفضة منبسطة فوق كتفى ، والصدر الملىء مابرح يتموج مختلجاً بين ذراعى ؛ جاشت نفسى بالذكرى ، وعضضت شفتى ندماً وقلت : ليتنى ، ليتنى ما حنثت باليمين .. ..

***

ما كنت أحسبنى أستعيد مرح الصبا ونشوة الرقص ، وقد أرهقنى الزواج المبكر بأحمال من الرزانة ، وبأثقال من الوقار ، وبكل ما تفتعله أكاذيب العادات ونفاق التقاليد

لم أكن أنشد فى الرقص ما ينشده شبان ينتقلون كالنحلة من زهرة الى زهرة ، يرتشفون من ندى زهرات الحياة ما يرتشفون . . . لم أكن كعقلاء العزّاب أو جهالهم أبحث عن فتاة فيها من أوصاف الجمال الجثمانى ، أو طيش الطباع النزاعة الى العبث والهو ، أو وفرة المال للزواج ، بل كنت مكبوت النفس بحب قديم لم تقو صروف الزمان ومناسباته ولا تطورات الفكر على خنقه ؛ لا غرابة فى خمود ذلك الحب طوال السنين ، بل الغرابة لو لم يستيقظ ويستنهض فىّ دوافع الميول المستقرة فى أعماق قلبي بكامل ما فيها من قوى الحياة تهليلا للحب البكر البرئ

لقد كنت والسيدة أحرص ما نكون على إخفاء أمارات الحب فى عيوننا ؛ لم يكن فى مظاهرنا ما يلهم غريزة المرأة استشعار الواقع بدليل أن امرأتى لم تدرك شيئاً منه ؛ أما زوجها فقد كان له من أقداح الوسكى وأحاديث البورصة والمضاربات ما يشغله عنا ، فلم يع شيئاً من ذلك أيضاً ؛ وهكذا كانت تنقضى ليالى الاجتماع بمظهرين : مظهر النفس التأججة بلاعج من حب باطني ، ومظهر السكوت الدال على الاندماج الكلى فى وحدانية الحب المقدس ، وعلى التجاوب الروحى والتفاهم الجسدى حين المخاصرة

لم يعد طبيعياً أن تطاوعنا عناصر الوجود على استدامة هذه الحال ، فلما همست أخفتَ همسة فى أذن « حبيبتى » أطلب منها لقاء على انفراد ، أومأت بهدب جفنها إعادة الرضى وأتبعتها بلمحة من بسمة ارتسمت على جانب شفتها ، ونظرت الى نظرة طويلة ... ثم فتحت فاها كأنها تريد أن تقول شيئاً ، ولكنها أحجمت وأطبقت شفتيها ... ثم عادت فاشترطت أن يكون اللقاء فى الريف على ضفاف النيل ، وألا يرى أحدنا الآخر إلا فى الموعد المضروب ؛ رضيت بهذا الشرط الصارم وحرمانى منها طيلة عشرة أيام

***

عبثاً كنت أحاول إخماد حدة الأزمة النفسية التى ساورتنى ففزعت الى « الأقصر » أستمد السكون والهدوء من مشاهدة آثار العصور الخوالى فى وادى الملوك ، ولكن متى كانت صور الفن تصرف الذهن عن الصور الحية ، وكيف يهدأ قلب استفاق من هجعة الحب الأول على صراخ تأنيب الضمير ؟

عجبا ! لم جعلت اللقاء بعد عشرة أيام ودعمته ألا يرى أحدنا الآخر خلالها ؟ هل رمت من وراء هذا التباعد الى إثارة قوى الدفع والجذب التى تكون وليدة الآمال المرتجاة ؟ هل شاءت بباعث من غرائزها التى يعمل عقل الرجل مجتهداً فى حل رموزها أن تمتحن الفوارق بين اللقاء المكظوم فى صالة الرقص وبين اللقاء الموعود فى الريف ؟ هل أرادت أن تستجم للقاء كما يستجم الشاعر لابداع قصيدة ، والعابد لتتمة صلاة غير مسطورة فى كتاب ، والصوفى للاندماج فى وحدانية الله ؟ وإنما رغبت فى أن يكون لقاؤنا اللقاء الأخير وموقف الوداع قبل السفر ! !

... ... دنا الوعد ، اقتربت ساعة اللقاء ، وقفت أنتظر قدوم سيارتها وأرقب دقائق الساعة بضجر ملحّ ، وأعدّ الثوانى باضطراب . تمضى الثوانى والدقائق والساعات ، بل العمر كله يمضى فى طريق الزمن والزمن لا ينفك منذ الأزل وسيبقى مدى الآباد يسير بنظام محكم الضبط إلا أنا ، أنا الشاذ المضطرب ، الصاخب الهادئ ، المفكر المبلبل ، أنا السعيد الحزين ، والباكى الضاحك ، أنا الذى أعيش فى أرض يلوح لى الآن أنها تدور دورة معكوسة ! ! !

لمحت سيارتها مطلة من بعيد فشعرت بدمى يندفع حاراً فى عروق وسمعت بأذنى وجيب قلبي ... وقفت السيارة ، وإذ فتح بابها رأيت السيدة جالسة والى جانبها صبى صغير ، وكانت مرتدية ثوبا أزرق وقد أمالت رأسها الى جانب من السيارة ، ورأيت فى عينيها الحالمتين فتوراً ساحراً غريباً ؛ وقفت زهاء نصف دقيقة ذاهلا مبهوتا لم أستطع النطق حتى بالتحية ؛ خيل الى أنى قد استجمعت فى هذه الفترة كل ماضينا ... والتفت فوقعت عيناى على الصبى ... وانقبض قلبي ؛ غام الضوء فى نظرى وشعرت بحزن طارئ يستولى على ، كبحت جماح عواطفى ، وتمثلت الابتسام ، وكانت قد أفسحت لى مجالا فوثبت الى المقعد وراءها بالقرب منها

لم أدر السبب الذى حدا بى كى أستجيب وأصعد الى السيارة ؛ لقد غمرنى مرأى الصبى باحساس مؤلم قوى لم أكن أتوقعه حتى لقد وددت أن أفر بنفسي

وكأنها قد أشفقت على ، فلم تتكلم ، بل مدت بأطراف الأنامل يدها وتلاقت يدانا فى مصافحة صامتة ، وكانت يدى باردة كالثلج بينما كان الدفء يسرى من كفها . ثم قربت يدها شيئاً فشيئاً حتى احتوتها يدى ، فضغطت عليها ضغطة قوية كأنما أردت

أن أهرب من برودة قارسة إلى حرارة الحياة

استأنسنا بالصمت ، ثم تلاقت عينانا ؛ كان فى نظراتى شبه استعتاب لمجىء الصبى معها ، وكأنها فهمت ذلك بالنظرة الخاطفة فشاءت أن تعدل عنها ، وتبسمت واهتزت يدها فى يدى تريد أن تذكرنى بأنى أضغط فى عنف عليها ، وتألق فى عينيها لمعان ... هذا اللمعان الذى أبصرته فى مقلتيها الكستنائيتين أول مرة عرفتها ، لمعان قوى كضوء باهر فى ليلة شتاء يسطع بين السحب ثم يختفى ... أجل ؛ بدا لى أننى أعثر فى تلك السيدة على أشياء ما رأيت قط مثلها فى امرأة من قبل ، وكان هذا محور حياتى معها وتاريخ حبى لها ... فيها أشياء كالنور حينا والحرارة حينا ؛ فيها صمت لا أدرى قراره ... وشممت عطرها القديم الذى طالما ملأت منه رئتى ، فاسترحت

* * *

السيارة ماضية بنا تنهب الطريق الممتد بين حقول القطن تظلله غصون الشجر ، لم أكن لأستطيع فى هذا الحين جمع خواطرى لأنها كانت تتناثر كالشرر ، إنما كنت أحس كأنى انفصلت عن العالم وانقطعت صلتى بالناس ، بالحياة وبالواجب أيضاً

ها هى إلى جانبى ، المرأة التى كنت ركزت عليها آمال الشباب ، ها هى مبعث الحلم البعيد الذى يصطخب فى قرارة تصوراتى ، ها هى الومضة الخاطفة التى باشعاعاتها تنير أجواء التفاؤل فى حياتى ، لقد حققت بوجودها جميع صور الخيال وأطياف الأحلام ، ها هى بروحها وجسمها إلى جانبى لا يحتجزها عن الالتصاق بى سوى طفلها الجالس فى هدوء كأنه يحلم مثلنا

. . . علام أتجاهل حياتها الواقعة ، بل لم أتغافل عن الأمر الواقع الصارخ ؟ إن قوانين الحياة وتقاليدها البغيضة تسرى علينا سوياً ، فلماذا أحاول أن أبعث فى نفسها أنانية متمردة شرهة كالتى تمج بها نفسى ؟ كلنا أسرى العواطف ، عبيد الشهوات ، أفلا يليق بنا وقد ولجنا عالم الانسانية من أبواب الشعر أن نقيم لسيول الشهوة العمياء سدوداً تحول دون اجترافنا ؟ أجل ، إنى لأنزه الحب عن أن يكون مجرد مادة ، كما انى أتبرم به متى كان حرماناً صرفاً . يسمو الحب على الحقائق ولكنه لا يستطيع أن ينكرها أو يستهين بها ؛ فلماذا تتألم نفسى من وجود الصبى بيننا ؟

يسمو الحب على الحقائق ، ولكنه متى نما واكتمل وازدهر ، وتسنم ذروته العليا فقد يخضع لهذه الحقائق عن رضى لأن سر عظمته فى اللين والخضوع ! !

لماذا أفزع من وجود الصبى ؟ لقد جاءت به لتفصلنى عنها ، لتضع سداً بينى وبينها ، لتنقذ حبى من التردى فى مهاوى الواقع والفناء فى ظلمة الحقيقة ... إنها تحبنى ، أشعر بهذا من رعشات يدها ، ورجفات جفنيها ، من شفتيها المختلجتين وعينيها المتقدتين شهوة وحسرة ، تحبنى ولكنها لا تريد الاستسلام ، تحبنى وتخشى إن هى استسلمت ثم افترقنا على مضض ، كما يقضى بذلك الواجب ، أن تعذبنى الحسرة وتشقيها اللوعة ، وأن تترك من شخصها فى خيالى صورة بشعة ملوثة تهبط بهذا الحب الرائع القدسى إلى درك الحيوانية الأولى ! !

إنها تريد أن تكون بكليتها لى ، أولا تكون لى أبداً ، وما دامت سترحل فى الغد ، عائدة إلى لبنان ، فهى تؤثر أن تحرمنى كل شىء على أن تسقينى من كأس مدنها الشهى جرعة واحدة لا تنقع غلتى ولا بد أن تسمم فى المستقبل كل حياتى

أواه ! لقد أدركت ما يجول بخاطرى ، ها هى تتفرس فى وتتأملنى وتشفق على منذ الآن ، ويكاد الدمع يطفر من عينيها

لماذا ؟ لماذا تبكين يا حبيبتى ؟ ! أخذت رأسها بين ذراعى ألاطف شعرها بينما كانت تنتفض ودموعها الحارة تتساقط على يدى

تجاه هذه الدموع لم أجد بداً من الاذعان لها ، أشفقت عليها كما أشفقت على ، سموت بحبى كما أرادت أن تسمو بحبها ، عولت على ألا أعترض القدر ، وأن أنزل ما استطعت على حكم هذه المرأة التى علمتنى أن فى وسع الانسان أن يعيش بالروح أكثر مما يعيش بالجسد ، وأن الحب الكبير قد يستطيع أن ينتصر لا على المادة فقط ، بل على الزمن أيضاً

أرسلت نفساً طويلا فرّج عن صدرى ، وضاعف أعصابى صلابة وقوة ، فتنحيت قليلا ومددت رأسى إلى حيث سائق السيارة وغمغمت بهذه الكلمات : « عد من حيث أتيت »

حدّقت فىّ وأشرق وجهها بغتة ، ثم أطرقت برأسها وتلمست يدى ورفعتها برفق إلى شفتيها ، فشعرت بالقبلة الهادئة تجمع بيننا إلى الأبد

عادت بنا السيارة تنهب الأرض ، والأشجار تتعاقب ، والهواء يصفر ، والصبى يضحك ، وأنا أردد فى نفسى هذه الكلمات : غريب ! غريب ! غريب !

حبيب الزحلاوى